أوجست كومت

(١٧٩٨—١٧٥٧)

ينعقد إجماع مؤرخى الفلسفة على أن «أوجست كومت» *Auguste Comte* هو الذى أرسى دعائم فلسفة ذات شأن عظيم فى المعرفة ، تلك هى الفلسفة الوضعية . ويلتمس «أوجست كومت» فى الوضعية أساساً متينا لبناء اجتماعى متماسك .

وتصطدم فلسفة كومت فى عنف مع فلسفة هيجل (١) ، فقد كان « كومت » يمقت كل تأمل ميتافيزيقى (٢) أياً كان لونه . فقد درس كومت العلوم الطبيعية وكان على بينة ودراية بما حققته من نجاح وما أصابته من توفيق . وارتأى أن الفائدة التى جناها الناس ، عامتهم وخاصتهم على حد سواء ، من ثمرة الدراسات العلمية فائدة عظيمة فى مختلف ميادين الحياة ، بينما الفلسفة المثالية وما تنطوى عليه من تفكير مطلق تتعالى على الناس وتنأى عن الحياة العملية .

إن أهداف العلم فى نظر « كومت » ينبغى أن تكون حقاً مشاعاً

---

(١) كان هم (هيجل *Hegel*) الأول متجها الى التوفيق بين الذات والموضوع اللذين فرق بينهما (كانت) . واللذين آسرف فى حل مشكلتها كل من (فشه) و (شلنج) إذ ألغى الأول الموضوع فكان ذاتياً متطرفا ، وقضى الثانى على الذات فكان موضوعياً متعاليا . أما (هيجل) فوحد بين العنصرين فى وحدة عليا هى (المطلق)

(٢) أنظر الدرس الأول من كتاب (كومت) (دروس فى الفلسفة الوضعية) . ناقش (الرد على الوضعيين) فى إنكار الميتافيزيقا . ص ٤٨ — ٥١ من كتاب (محاولات فلسفية) للاستاذ الدكتور عثمان أمين . مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٢

للناس جميعاً ، وغرض العلم هو البحث عن المعرفة التي تعين الناس على أن يحيوا حياة سليمة سعيدة . فالعلم ينظم المعرفة ، ويزودنا بالقدرة على التنبؤ بمصيرنا فى المستقبل ويمكننا من أن نتحكم فى الطبيعة ونسخر قواها لخدمة التقدم البشرى وتحقيق سعادة البشر

ويرى « كومت » أننا لاينبغى أن نقصر جهودنا على الرياضيات والعلوم الطبيعية فحسب ، بل يجمل بنا أن نبادر بتطبيق المنهج العلمى على مجالات أوسع ونبسطه على ميادين الحياة العامة ، فنصل بذلك إلى تنمية التراث العلمى ، ويتهيأ لنا أن ننظم أوضاع حياتنا فى المجتمع على أسس مدروسة . إذا تحقق لنا ذلك وأتيح لنا أن نزن تقديرنا للظواهر الاجتماعية والأخلاقية بنفس الميزان الذى نزن به تقديرنا للأحداث العلمية ، أعنى أن نتبع المنهج العلمى فى المجالين ، إذا أتيح لنا ذلك فلسوف يصاحبنا التوفيق فى بناء فلسفة وضعية للحياة ، تُلهم البشر معتقداتهم وتهديهم فى سلوكهم وتضع لهم قواعد راسخة لأخلاقهم .

نحن نفتقر من ثَمَّ إلى علم للسلوك الاجتماعى نحله ثقتنا ونختصه بيقيننا ، هذا هو مثلنا الأعلى ، وهو المثل الذى يلهمنا فى كل عصر وزمان . وهذه هى بداية علم الاجتماع الذى اختمر فى أذهان كثير من المؤرخين وعلى رأسهم ابن خلدون ، وتبلور فى تلك الجهود الجبارة التى بذلها « كومت » لتحقيق الأمل فى دراسة علمية للمجتمع يمكن على ضوئها أن يعمل العاملون على تقدم الإنسان ورفاهيته وسعادته .

إن المطلق (الهيجلى) يحلّق فى أجواز الميتافيزيقا فتكتنفه سحب وغيوم لاسبيل إلى تبديدها . وهذا الجدل *Dialectiqus* الذى يدعو إليه «هيجل»

أشبه - فى نظر كومت - بألعاب الحواة تُغرى الناس وتجذبهم فيقبلون عليها بينما بطونهم تئن من الفراغ ؛ فما الذى يسعى إليه العلم إذن ؟ .

تتبنى الوضعية نظرة «هيوم»(١) فتنحى جانباً كل تفكير أولى *à prtori* ضرورى *nécessaire* لا يقع فى نطاق التجربة ولا تدركه الحواس . إن الكيفيات الأولى *primary qualities* عند لوك(٢) والنومين *Noumènes* أو الأشياء فى ذاتها عند «كانت»(٣) ، والمطلق عند «هيجل» وكل مايجرى على هذا النسق فهو ضرب من الميتافيزيقا ، إذ أنه يتخطى التجربة التى تزودنا وحدها بكل ما يمكن أن نستوثق منه لأنه وضعى . بيد أن «هيوم» ينتهى كما رأينا(٤) إلى نتيجة شكية معتدلة أو إلى احتمالية ، فموقفه من ثم موقف يكاد يكون سلبياً . أما «كومت» فقد مضى فى الشوط إلى نهايته ، وتملكه الحماس للمنهج العلمى فآمن بثمرات التجارب العلمية إيماناً عميقاً ؛ فلاريب عنده فى أن العلم قد انعقد له لواء النصر ، وتوصل إلى نتائج إيجابية وضعية فعالة ، أعنى ليست سلبية . فكلمة وضعى *positif* فى نظر كومت تحمل معنى مزدوجاً ، فهى تجمع معاً بين الإيجابية واليقين . والوضعية كما ذكرنا تنبذ كل ما يخرج عن نطاق التجربة وتعده لوناً من الميتافيزيقا لا يؤمن جانبه ، والميتافيزيقا سلبية يتزعزع فيها اليقين . والوضعية تعقد آمالها على العلم ، فالعلم هو الذى يجلب لنا نتائج تنفعنا فى الحياة العملية .

---

١) راجع كتابنا عن فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد القاهرة ١٩٥٦

٢) ص ٧١ - ٧٥ من كتاب « المعرفة »

٣) ص ٨٧ من هذا الكتاب .

٤) ص ٧٨ - ٨٢ نفس المصدر . أنظر كذلك كتابنا (فلسفة هيوم) .

وقد أخذت الوضعية على عاتقها مهمة الانتفاع بما فى التجارب من ثمرات تتخطى مجال الانطباعات الحسية . فمهمة العلم ليست قاصرة فحسب على تقصى الوقائع وتكديسها ؛ وتقدم العلم ليس مرهوناً فحسب باتساع مجال المشاهدة ؛ إن العلم يتولى إلى جانب هذا كله استخلاص القوانين من مشاهدة الظواهر (١) . بيد أن هذه القوانين لا يمكن أن تعد متحكمة فى سلوك العالم الحسى ، فهى ليست عللا للأشياء ، ذلك لأننا لو اعتبرناها عللا لكان فى موقفنا هذا تفسير ميتافيزيقى . فالقوانين الطبيعية ليست فى الواقع إلا أوصافاً للطريقة التى تسلكها الظواهر . فليست القوانين تفسيراً للسبب الذى من أجله تسلك الظواهر مسلكاً معيناً دون آخر ؛ فنحن لا نعلم هذا السبب ؛ لأن علل الأشياء لا تقع تحت حواسنا . ومن هنا نلمس مدى التشابه العميق بين موقف الوضعية وموقف هيوم (٢) بإزاء قانون العلية . فليس ثمة يقين تام نستند إليه فى التسليم بالعلية . والقوانين العلمية التى هى أقرب فى طبيعتها إلى أن تكون قوانين وصفية منها إلى قوانين تفسيرية ، يمكننا أن ننتفع بها فى التنبؤ بالمستقبل طالما كنا نفترض أن تجارب المستقبل تشبه تجارب الماضى .

عند هذه النقطة يسلم « كومت » باتساق الطبيعة *uniformité de la nature* ، ولعل فى التسليم بهذا الاتساق إنسياقا منه إلى مجال الميتافيزيقا

---

١) أنظر ص ٥٥ من :

Bachlard : Etude sur l' évolution d'un problème physique.

الفصل الخامس عن « أوجست كومت » و « فوربيه » .

٢) ص ٨٥ ــ ١٠٠ من كتاب فلسفة هيوم .

الذى يحرص على اجتنابه من البداية . بيد أن موقفه من هذا الاتساق ليس موقفاً قطعياً *dogmatique* ؛ فهو يذهب إلى أن القوانين ليست مطلقة بالضرورة بمعنى أن الضرورة المتمثله فيها ليست ضرورة صادقة صدقاً كلياً . وإقامة قوانين مطلقة نثق من انطباقها وصدقها على جميع الأشياء فى كل زمان ومكان ، يتطلب مشاهدة علمية كاملة محيطة لجميع الظواهر أياً كانت فى الماضى والحاضر والمستقبل ؛ فى جميع جوانب العالم . وهذه الإحاطة تستحيل علينا طالما كانت المشاهدة العلمية محدودة بقدر بسيط فى المكان والزمان وبالتالى فليس فى الوسع الوصول إلى خارج دائرة الملاحظة العلمية .

أضف إلى هذا ان التفكير العلمى تفكير نسبى لارتباطه بتكوين الإنسان العضوى . وعلى ذلك نرى أن « كومت » يسلم بأن القوانين مهما بلغت فى دقتها ، لا تعدو أن تكون قوانين تقريبية . ومهما يكن من أمر فالقوانين العلمية خير من « مطلق » *absolu* لا يسعنا الوصول إليه . ذلك أنه على الرغم من كون هذه القوانين نسبية أو تقريبية فإنها قد أسدت ، ولازالت تسدى ، للجنس البشرى أجلّ الخدمات .

هذا موجز لموقف الوضعية من المعرفة ؛ وتكتمل معالم هذه الصورة حين نُلِمّ بطبيعة القانون الجوهرى الذى يستند إليه « كومت » فى مذهبه كله ، وأعنى به قانون المراحل الثلاث . ففى كتابه « دروس فى الفلسفة الوضعية » « *Cours de Philosophie Positive* » نراه يقترب حثيثاً من معنى الفلسفة الوضعية حين يتوّج أبحاثه بقانون المراحل

الثلاث . ويعد هذا القانون ثمرة طيبة لتطبيق المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية . ومضمون هذا القانون، الذى يمكننا أن نتصور فى ضوئه تطور الحضارة والتراث البشرى، أن كل فرع من فروع المعرفة البشرية يجتاز مراحل ثلاثاً : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، وأخيراً المرحلة الوضعية . ففى المرحلة الأولى يبحث الإنسان عن علل غائية ، وفى المرحلة الثانية عن قوى مجردة ، وفى المرحلة الثالثة عن القوانين الصحيحة . ولكل مرحلة أوج تصل إليه ؛ فالله فى قمة المرحلة الأولى ، والطبيعة فى قمة المرحلة الثانية والقانون الكلى فى قمة المرحلة الثالثة . وثمة نمطان من الحقائق تشهد بصحة هذا القانون . فمن ناحية يظهرنا العلم على أنه قد مر بهذه المراحل كلها ، ونرى من ناحية أخرى أن تطور الفرد يلخص تطور الجنس . فالمرحلة الدينية تمثل طفولة الجنس البشرى حيث نلمس نزعة إلى تشخيص الأشياء والقوى ؛ والمعرفة فى هذه المرحلة تأتى عن طريق المعجزات وما يكشف عنه السحر وما تنم عليه قراءة النجوم ، ومن سلطان الآلهة الذين يملكون أزمة الأمور ويسخرون قوى الطبيعة على مايشاءون . أما المرحلة الميتافيزيقية فتمثل شباب الجنس البشرى حين يعمد الناس إلى الاعتماد على تأملهم الشخصى بدلا من استنادهم إلى قوى عليا، وتسليمهم بقدرة فائقة، وهذا ما نلمسه فى تفكير اليونان الفلسفى وفى هذه المرحلة الميتافيزيقية نجد الإنسان يستعيض عن الآلهة بالمبادىء الميتافيزيقية ؛ مثل ذلك فكرة أفلاطون عن الله ، وأرسطو عن المحرك الأول ، وفكرة المطلق عند هيجل . وحين تبلغ الإنسانية رشدها وتستكمل عناصر رجولتها ، إن صح هذا التعبير ، ويتم لها الإدراك

السليم والفهم الصحيح تصل إلى المرحلة الوضعية . وفى هذه المرحلة يتخلى الانسان عن بحثه عن محركات أولى ، وعن ألوان المطلق ، وأنماط الجواهر ، ويُقلع عن كل تأمل يفلت من يدى التجربة ويمرُق من مجال الإحساس ؛ ثمتئذ يحصر الإنسان أبحاثه ودراساته فى مجال التجارب التى تخضع المنهج العلمى فتتم له بذلك معرفة وضعية علمية .

هذا عرض مجمل لموقف « كومت » من المعرفة ، وقد كان له دون مارب أثر كبير فى وضع أسس المذهب الوضعى كما ألمعنا . ولا شك أن للوضعية أهميتها وبالغ قيمتها فى تعزيز الإيمان بقيمة العلم ، وحث جهود البشر على استكناه أسرار الطبيعة ، واجتثاث النزعات الدينيـــة والأسطورية المتسلطة على أذهان الكثيرين . وكانت الوضعية إيذاناً بحملة عنيفة على الميتافيزيقا ، وقد رأينا أن الوضعية تستند إلى الكثير من آراء هيوم ولكنها تخطت « هيوم » وانصب اهتمامها على التقدم العلمى والاجتماعى معاً . وقد كان للوضعية نفوذ عظيم على كثير من تيارات الفكر الحديث فى أوروبا وفى أمريكا بوجه خاص . (١)

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى ص ٦٩٧ من :

Daniel. S. Robinson : An Anthology of Modern Philosophy „New York. 1931.„